

مدينة بربر السودانية من مدن الفواغل العربية؛ أوضاعها الحالية

صلاح عمر الصادق

عرفت منطقة بربر منذ فجر التاريخ الإنساني بتراثها الحضاري المتواصل، فقد وجدت فيها الأدوات الحجرية الأولى لإنسان العصر الحجري القديم في السودان (10000 - 12000 ق.م) متمثلة بمنطقة جبل نخرو على الضفة الغربية للنيل المواجه لمدينة بربر، وبهذا تؤكد منطقة بربر عمقها التاريخي كأحد المستقرات الأولى للإنسان على النيل.

تواصل التطور الحضاري لمنطقة بربر في العصور التاريخية حيث ازدهرت المنطقة في الفترة المروية (900 ق.م - 350 م)، ويتمثل ذلك في المدينة المروية الكاملة بالضائق شمال مدينة بربر. هذا العطاء الحضاري استمر حيث بلغت مدينة بربر أوج ازدهارها في الفترة العربية الإسلامية (الفونج، والتركية، والمهدية - 1405 - 1898).

كانت بربر منطقة تواصل حضاري استمر في هذه الفترة حيث نجد أنها كانت حلقة وصل ما بين سكان النيل وسكان البحر الأحمر في جانبه الغربي أو الشرقي وسكان غرب أفريقيا، كما ضمت كثيراً من العناصر الإسلامية من كافة أنحاء العالم الإسلامي، وشكلت ملتقى لحجاج الأراضي المقدسة في الحجاز من كافة أنحاء السودان وحجاج غرب أفريقيا أيضاً. إضافة إلى ذلك كانت بربر معبراً وملتقى للطرق القديمة ما بين السودان ومصر مثل طريق دراوة بربر شندي وهي طريق للسفر وتجارة القوافل ما بين السودان ومصر عبر الصحراء الشرقية لمصر والسودان.

وأشهر طرق القوافل بها هي طريق إلى أسوان طولها 788 كم وطريق إلى كورسكو داخل مصر تمرّ بأبي حمد ثم تقطع صحراء الشرقية للسودان ومصر ثم تلتقي مع النيل عند كورسكو وطول هذه الطريق 610 كم، وطريق من بربر إلى سواكن وهي طريق تجارية وطريق حج أيضاً وتقطع هذه الطريق جبال البحر الأحمر مارة بعدة آبار حفرت على مسافات متباعدة بطول الطريق. وهي من أشهر الطرق في تلك الفترة فقد سار عليها كل حجّاج السودان ودول غرب وأواسط أفريقيا وطول الطريق 408 كم. والجدير بالذكر أن هذه الطريق سار عليها الرحالة السويسري جون لويس بوركهارد وهو في طريقه من بربر إلى سواكن ثم إلى الأراضي المقدسة في الحجاز، وكان ذلك عام 1813. وقد أعطى وصفاً كاملاً للطريق في كتابه رحلتي في بلاد النوبة⁽¹⁾ كما سار أيضاً على هذه الطريق العالم السوداني بابكر بدري في رحلات تجارية ورحلات حجّ وكان ذلك في عام 1891 وقد أعطى وصفاً لهذه الرحلات عن هذه الطريق في كتابه حياتي (الجزء الأول) كما أن هناك طريق القوافل من بربر إلى مصوع على ساحل البحر الأحمر الإرتري وتمر هذه الطريق بكسلا وهي طريق هامة للتبادل التجاري وطول الطريق 905 كم.

هذه طرق القوافل الخارجة والقادمة لبربر من الشمال والشمال الشرقي والشرق، ولكن توجد أيضاً طرق خارجة وقادمة لبربر من الجنوب والغرب، فهناك طريق حجّاج غرب وأواسط أفريقيا التي تتحرك من تمبكتو في مالي شاقة غرب أفريقيا قادمة إلى بربر ومنها تتحرك إلى سواكن. كما أن هناك طريق سنار بربر مارة بكل من شندى والحلفايا ثم سنار متابعة طريق النيل ثم النيل الأزرق. وكانت بربر مدينة قوافل تنقل خيرات القارة الأفريقية إلى العالم الخارجي عن طريق مصر والحجاز، وتأتي بخيرات تلك الدول إلى القارة الأفريقية. وكان هذا النشاط التجاري والديني يدور في فلك العروبة والإسلام.

لقد كانت بربر ملتقى حضاري للقوافل البرية لكافة أنحاء السودان والعالم القديم في تلك الفترة، كما كانت ميناء نهرياً هاماً للسفن الصاعدة والهابطة مع النيل شمالاً وجنوباً نحو المدن الرئيسية التي تقع على ضفتيه، ناقلة الحضارة عبر التجارة، فهي كانت المدخل إلى أعماق قارة أفريقيا.

هذا التمازج الحضاري التقى وتفاعل في بربر عبر تاريخها الطويل وقد تركت العهود المختلفة بصمتها فيها من خلال تلاحق حضاري بناءً: وتقف عمارة مدينة بربر شاهداً مادياً عليه.

(1) John Lewis Burckhardt. *Travels in Nubia*. London. 1819.

وتهدف هذه المقالة، إلى استعراض تاريخ بربر كمدينة من مدن القوافل العربية الإسلامية كما تسعى إلى إلقاء الضوء على أوضاع عمارة بربر حالياً التي تركتها لنا تلك الفترة وتحليل هذه العمارة بكل أنواعها من عمارة عسكرية ومدنية ودينية، وإبراز الدور الذي لعبته في تاريخ مدينة بربر من خلال سكان المدينة ذوي الخلفيات الحضارية المختلفة والذين انصهروا وتصاهروا في هذه المدينة العربية الإسلامية.

لقد كان هذا التراث الثقافي المادي لمدينة بربر نتاجاً لعناصر حضارية متباينة تحاورت ثم تمازجت ثم عاشت بسلام لتقدم لنا عمارة تعتبر من التراث الثقافي العالمي الذي يتوجب الحفاظ عليه.

اسم بربر

هنالك عدة تفسيرات لاسم بربر، فقد قيل إنه مشتق من اسم امرأة كانت تحكمها في الزمان السابق وتسمى بربرة. وهناك تفسير آخر ينسب الاسم إلى حركة القوافل بالبر، وكانت بربر ملتقى لهذه القوافل التي تقطع مسافات طويلة حتى تصل إليها. ولكن من المتفق عليه أن اسم بربر ظهر في الفترة العربية الإسلامية (فترة الفونج) ولم تذكره أية مصادر سابقة لهذه الفترة. وقد سميت أيضاً بالمخيرف وذلك لأنها أطيب مناطق السودان هواء وأوفرها خيراً.

المسح المعماري لمدينة بربر القديمة

المنطقة الممسوحة من مدينة بربر القديمة (القيقر) هي جزء من مشروع بربر- العبيدية الأثري (P.A.A.B) وهو عمل مشترك بين الهيئة القومية للآثار والمتاحف السودانية (NCAM) ومتحف أونتاريو الملكي (ROM) بتورنتو. يهدف هذا العمل إلى القيام لأول مرة بالتسجيل والتوثيق العلمي للمباني والمواقع الإسلامية بمدينة بربر القديمة وهذا العمل قام به الكاتب في الإطار العام للمشروع⁽²⁾.

مشروع بربر العبيدية الأثري (BAAL) بدأ في أواخر العام 1997 م⁽²⁾ بينما تم تسجيل بربر القديمة خلال الحملة الثانية للمشروع (25 فبراير-15 مارس)⁽³⁾.

Julie Anderson and Salah El-Din Mohammed Ahmed, *Archaeological Reconnaissance in the Berber - Abidiya Region 1997*. forthcoming Kush . Vol, XVIII. (2)

Ibid. A post Meroitic Double shaft tomb in El - Ferikha. *Archéologie du Nil Moyen* , vol, 9. 2002. pp.15 ,16. (3)

موقع ووصف مدينة بربر

مدينة بربر القديمة (القيقر) تقع على الضفة الشرقية للنيل على بعد حوالي 380 كلم شمال الخرطوم. وهي موضحة في خارطة السودان (K.36.NE) بمقياس الرسم 1:250,000 وإحداثيات طول 33 59 30 شرق وعرض 17 58 30 شمال⁽⁴⁾ خارطة رقم 1. ونشير إلى أنه تم تسجيل كل مبنى على حدة. ولحسن الحظ فإن الخارطة التاريخية لمدينة بربر القديمة (القيقر) والتي تعود للعام 1908، خارطة رقم 2، قد أفادت كثيراً في تعريف وتسجيل المواقع حيث سجلت على هذه الخارطة كل المباني الموجودة وذلك بواسطة مكتب المساحة في بربر.

تقع المدينة على منطقة مرتفعة يطلق عليها (قوز الفونج) وهذا القوز يمتد باتجاه الجنوب حيث يكون الجزء الجنوبي من المدينة، وقد كان من المناطق السكنية الهامة خلال فترة دولة الفونج (1405 - 1821). والمدينة بنيت بالطوب اللبن ماعدا مباني المصبغة حيث بنيت بالطوب الأحمر وطليت بالأسمنت. وكانت لمدينة سواكن علاقة تجارية متميزة مع مدينة بربر امتدت منذ فترة دولة الفونج حتى الدولة المهديّة (1885-1898).⁽⁵⁾ كما أن كلتا المدينتين قد اتخذتا هندسة تخطيط المدن الإسلامية وكانت لهما تجارة مشتركة.⁽⁶⁾

بربر في فترة الفونج عام 1813 - منازلها وقوافلها

من خلال وصف الرحالة جون لويس بوركهارد (John Lewis Burckhardt) الذي زار بربر في رحلته إلى الحجاز نستطيع أن نلمّ بوصف للمدينة ومبانيها. يقول بوركهارد "ومنازل المدينة تفصل عامة فيما بينها بفناء كبير مما يؤدي إلى عدم وجود شوارع منتظمة، والمباني مبنية بصورة جيّدة من الطين أو الطوب اللبن (الطوب المجفف بالشمس) وشكلها على الأقل جيد مثل تلك التي في مصر العليا. وكل منزل يتكوّن من ساحة كبيرة تقسم إلى فناءات داخلية وخارجية، وحول هذه الساحة توجد غرف العائلة وكلها في الطابق الأرضي ولم أرب في هذه البلاد طابقاً ثانياً أو سُلماً، ولبناء السقف توضع فروع أشجار فوق الجدران وتغطّي هذه الفروع بالحصير وتصفّ فوقها فروع القصب ويغطّي كل ذلك بطبقة من الطين. والسقف له ميلان حتى يسمح بسقوط مياه الأمطار، وهناك قناة تسحب عليها مياه الأمطار

(4) أنظر خارطة مصلحة المساحة السودانية رقم K.36-NE مقياس رسم 1:250,000

(5) Jean. Pierre Green low. *The Coral Buildings of Suakin*, Oriel Press . Leeds . 1976 pp. 8,9.

(6) محمد صالح ضرار . تاريخ سواكن والبحر الاحمر . الدار السودانية ، 1981 ص. 71-72.

إلى فناء المنزل مما يجعل ساحات المنازل موحلة في موسم الأمطار. وإثنان من الوحدات السكنية للمنزل تقطن بواسطة العائلة وثالثة تستخدم كسكن ورابعة تستخدم كضيافة، ووحدة سكنية خامسة تستخدم بواسطة خادمت المنزل. والغرفة ليس بها أكثر من شبك صغير ولذلك لا بدّ من ترك الباب مفتوحاً للحصول على ضوء كافٍ. والباب مصنوع من الخشب وله قفل خشبي مثل الذي يستخدم في سوريا ومصر ولكن بصناعة غير متقنة. ولا يوجد أثاث في هذه الغرف ماعدا سرير خشبي يغطى بحصير وهو ينسج من جلد الثيران بطريقة تقاطعية كما يستعمل أيضا ككنبة للجلوس عليه. كما أنهم يفرشون الحصير على أرض الغرف وينامون أيضا على سجاد صنع من الشعر".

أما عن وضع المدينة كملتقى لقوافل التجارة وقوافل السفر فيقول بوركهارد: "وبالرغم من أن سكان بربر مزارعين إلا أنهم يستغلون أوقات فراغهم من حقولهم ليعملوا في الأعمال التجارية لأن مدينة بربر أصبحت سوقاً مركزية للتجارة الجنوبية. فنجد أن كل القوافل الآتية من سنار (عاصمة الفونج) ومن شندى حاضرة الجعليين إلى مصر لا بدّ أن تمرّ بالمدينة. وكثير من القوافل الصغيرة تحمل وترحل من هنا دون الاحتياج للمؤن من الأسواق الجنوبية. لذلك نجد أن أية بضاعة من تجارة الزنوج بما في ذلك العبيد يمكن شراؤها من بربر بنسبة عشرين إلى خمسين في المائة أكثر من شندى، وتعتبر بربر سوقاً عامة".

أما وضع بربر كملتقى للقوافل التجارية من العالم الخارجي عن طريق سواكن وأيضا قوافل حجاج غرب وأواسط أفريقيا فيذكر بوركهارد أن هناك القوافل القادمة من دواخل السودان والتاكا في رحلة تستغرق عشرة أيام لمبادلة سلعهم من جلود الثيران والجمال. كما تأتي قوافل سواكن التي تستغرق رحلتها عشرة أيام أيضاً وهي تحمل التوابل والبضائع الهندية من أقمشة كتّانية وغيرها. ويفيدنا بوركهارد أن طريق بربر- سواكن من طرق الحجّ الرئيسية لحجاج غرب وأواسط أفريقيا وذلك لوجود الآبار على مساره.¹³

* خلفية تاريخية ووظيفية للمباني

إن جزءاً من منطقة بربر يرجع تاريخه لعصور ما قبل الإسلام. أما المدينة القديمة فإن المظاهر الأثرية فيها تعود لفترة الفونج والفترة التركية (1504-1885م) ومباني المدينة

13 - يقول بوركهارد :

" Caravans also arrive occasionally from Taka, across the Eastern mountains, a journey of ten or twelve days, to buy the same articles, or to exchange ox hides and camels for them. Small caravan, composed principally of Bisharein, come also from Suakin, a journey of ten days, with spices and India piece goods, chiefly cambries. This route is not frequented by foreign traders, from apprehension of the treachery of the Bisharein; but if any pilgrims, happen to be at Berber, in their way to Mekka when one of these Caravans sets out in its return, they often take the same route, in which water is found in plenty. The usual route of the Negro pilgrims, however, is either along the banks of the Nile, or by way of Taka"*

يمكن تصنيفها وفقاً لوظيفتها وللخلفية الحضارية لنشأتها حيث هنالك المباني الإدارية مثل مبنى المركز (رئاسة مفتش الحكومة)، ومبنى المديرية (رئاسة المديرية)، ومخازن الأسلحة والذخيرة ومدينة الحجاج. أما المباني الأخرى فهي مبان مدنية ودينية الطابع مثل المصبغة والمساجد والخلوات (المدارس القرآنية) والكنيسة.

تحتل المباني الإدارية الجانب الشرقي من المدينة ويطلق على هذا المربع من المدينة القيقر، أما المساجد والخلوات فتقع في حيّ المخيرف في المربع الجنوبي للمدينة، ويفصل خور الدكة المدينة القديمة عن المدينة الحديثة.

* وصف وتحليل المباني معمارياً

1. موقع رقم 1.E.4.K.36.NE هو مسجد الشيخ محمد المصري، هي صورة جوية رقم AD-131.14084 مصالحة المساحة K.36.NE خط طول 33 59 644 شرق، خط عرض 17 58 834 شمال.

ولد محمد المصري في الحجاز وتعلّم في مصر ومنها دخل السودان عن طريق دنقلا ودفن في مدينة بربر المخيرف ويعرف مكان دفنه بمقابر المصري. ونشير إلى أن محمد النور ضيف الله (1779-1810م) سرد في كتابه الطبقات الذي يعتبر من أهم المصادر لمعرفة فترة الفونج (1405 - 1821م) سيرة الشيخ محمد المصري.⁽⁷⁾

بني المسجد في فترة الفونج (1504-1821م) وقد تم هدم جزء من هذا المسجد خلال الفترة المهدية (1885-1898م)، ثم أعيد بناؤه مرّة أخرى في عام 1931م، وواصل الناس الصلاة فيه حتى عام 1977م حيث سقط السقف فهدم المسجد.

المسجد مستطيل البناء أبعاده هي 1120 ط 95 سم. وهو مبني بالطوب اللبن (أبعاد الطوبة 25 ط 15 ط 6 سم) وأعواد شجر الدوم. ليس هناك أبواب أو شبابيك أو سقف. ارتفاع الجدران حتى السقف تبلغ 325 سم وسمك الجدار 53 سم. وقد استخدم الخشب في عدة استخدامات في دعامة الأبواب أولاً، والشبابيك ثانياً وأيضاً فوق الأعمدة ليدعم السقف. المنبر لا يزال واقفاً والمحراب إلى الشمال منه، وهناك أيضاً أربعة أعمدة مربعة بنيت بالطوب اللبن لا تزال واقفة، والمسجد مطليّ من الداخل والخارج بالزباله (روث الحمير أو الأغنام مخلوط بالطين).

(7) محمد النور بن ضيف الله. كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان. تحقيق يوسف فضل حسن، ط أولى دار الاطباع. جامعة الخرطوم 1971 ص 100-101.

2. موقع رقم (2) E.4 /K.36.NE. خلوة المصري، صورة جوية AD.14084-131. (مصلحة المساحة السودانية) خارطة رقم K. 36.NE خط طول 33 59 30 شرق، خط عرض 17 58 45 شمال. الخلوة بنيت خلال فترة الفونج (1504-1821م) بناها الشيخ محمد المصري 1065 هـ - 1654م⁽⁸⁾ لتعليم الأطفال القرآن. وقد استمرت الخلوة في تعليم القرآن حتى عام 1945. وقد بنيت من غرفتين إحداها لازالت قائمة أما الأخرى فلم يبق منها غير الأساس. أبعاد الخلوة (1000 ط 550 سم) وارتفاع جدرانها 240 سم وسمك الجدران 25 سم. وقد سقط سقف الخلوة، وهي مطلية من الداخل والخارج بالزبالة وبني الأساس من الطوب اللبن بارتفاع 70 سم عن سطح الأرض.

3. موقع رقم 3 E.4/K.36.NE/ مسجد الفكي محمد، صورة جوية رقمه AD.14084. 131 (مصلحة المساحة السودانية). خارطة رقم K.36.NE خط طول 33 59 30 شرق، خط عرض 17 58 30 شمال. بني المسجد بالطوب اللبن وبقيت منه الجدران في جزئه الجنوبي/الشرقي والجزء الغربي وجزء من الأعمدة المربعة لا يزال واقفاً. يتصل هذا المسجد بخلوة تسمى خلوة الواقعة (مدرسة يوم الحساب)، بمعنى أن أي شخص يرتكب ذنباً يمكنه أن يجيء إلى هذه الخلوة لطلب الرحمة والمغفرة. أما الناس الذين يسكنون بالقرب من المسجد فيؤمنون بأن الولي المحبوب الذي عاش خلال فترة نهاية الفونج قد أمر الناس في المخيرف أن يبنوا هذا المسجد، وقد خص في دعوته النساء لكي يشاركن في أعمال البناء، لهذا نجد في الجدار الغربي للمسجد غرفة كانت مصلى للنساء وهي أساس المحراب في الجزء الشرقي.

4. موقع رقم 4 E.4/K.36.NE- المركز، صور جوية رقم AD 131.14084 مصلحة المساحة السودانية، خارطة رقم K.36.NE خط طول 33 59 46 شرق، خط عرض 17 59 36 شمال.

مازالت معظم مباني المركز واقفة، غرفة الاجتماعات ومكتب المأمور وأقسام الكتبة والمحاسبين.

المبنى يؤرخ للفترة التركية (1821-1885م) وهو مبني منذ أيام الأتراك الأولى في مدينة بربر.⁽⁹⁾ أبعاد المبنى هي 1550 ط 3700 سم وبه اثنتي عشرة غرفة ترتفع جدرانها أربعة أمتار ويبلغ ارتفاع الجدران الخارجية مترين والمبنى بني بالطوب اللبن.

(8) طارق احمد عثمان " الإسلام ودوره في العلاقات السودانية المصرية. " مجلة دراسات أفريقية، العدد الثامن والعشرون، جامعة أفريقيا العالمية. الخرطوم، ديسمبر 2002، ص 179.

(9) محمد الأمين الغبشاوي، تاريخ بربر، مكتب النشر، الخرطوم 1953. ص 14-15

أبعاد الطوب (27 ط 17 ط 7 سم) واستعملت جذوع شجر الدوم كعتبات للأبواب والشبابيك، والجدران الخارجية مطلية بالزبالة والداخلية بالبياض (الرمل والجير). وقد استعمل الأسمنت في بعض الغرف، الغرفتان في الجهة الغربية في حالة جيدة من الحفظ حيث لا يزال مدخلهما المتبقي واقفاً.

5. موقع 36.NE - K14 - 5.E المديرية - صورة جوية AD. 14084 - 131، مصلحة المساحة السودانية - خارطة رقم 36. NE. K. 36. خط طول 33 59 شرق، خط عرض 17 59 30 شمال.

بنيت المديرية على ضفة النيل ولم يبق من مبانيها غير حائط صغير. ويمكن معرفة خارطة البناء من سطح الأرض، ويبلغ ارتفاعها من الحائط الصغير 1 سم عن سطح الأرض وبني بالطوب اللبن، وبقيّة مباني المديرية دمرتها جيوش المهديّة المحتلة بقيادة الأمير محمد خير الذي قام بتحويل المدينة إلى موقعها الحالي⁽¹⁰⁾ والعامل الآخر الذي ساعد في تدمير المدينة القديمة هو استيلاء الناس على مواد بنائها المتمثلة في الطوب من نوعه اللبن والأحمر. تمّ بناء المديرية خلال الفترة التركية (1821-1885) وهي تعتبر إحدى المباني الأساسية حيث كان يُحكم منها معظم شمال السودان.⁽¹¹⁾

6. موقع رقم (6) 36-NE / K.4-6.E - المصبغة، صورة جوية رقم AD. 14084، 131 مصلحة المساحة السودانية خارطة رقم 36.NE. K. 36. خط طول 33 59 شرق خط عرض 17 59 30 أما شمال المصبغة فتم بناؤه خلال فترة الحكم التركي (1821-1885)⁽¹²⁾، وقد بنيت بالطوب الأحمر والأسمنت. وتوضع أنابيب الفخار في جزء المصبغة لتحريك مياه الصبغة. أبعاد الطوب هي 24 ط 16 ط 8 سم، وأما وصف المباني فهو كآلاتي : ستة أحواض إسمنتية أرضيتها بنيت بالطوب الأحمر وطلبت بالأسمنت، وهناك درج يؤدي إلى حوض المصبغة، وتمد بئر المصبغة بالماء وهي المرحلة الأولى في عملية الصبغ.

مبنى المصبغة مستطيل 5500 ط 1710 سم وارتفاعه 350 سم وسماك جدرانه 88 سم. وهو مطلي من الداخل والخارج بالأسمنت ويعتبر فريداً من نوعه في السودان. ويشير إلى

(10) نعيم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، الطبعة الثانية، بيروت 1977. ص 105 - 106.

B.M. Holt. The Mahdist State in the Sudan 1881-1898. 2nd. ed London Oxford University Press. (11) 1977.p.7.

(12) الغبشاوي، ص 12.

مستوى عالٍ في تقنية البناء. وتشير المصبغة إلى ما وصلته مدينة بربر من تطورٍ في مختلف مناشط الحياة.

7. موقع رقم (7) 7.E.4/36.NE مسجد السيد محمود - صورة جوية رقم 131-14084.AD - مصلحة المساحة السودانية خارطة رقم K.36.NE خط طول 33 59 30 شرق ، خط عرض 17 55 30 شمال.

بنيت المدينة خلال الفترة التركية (1821-1885م) ويعتبر الموقع الآن في حالة سيئة، فقد دمرَ تماماً بواسطة النشاط الزراعي ولم يبق غير أساسات المسجد التي تتمكّن بواسطتها من تتبع خارطة بناء المسجد.

هذا المسجد يشابه في مواد وتقنية بنائه مسجد محمد المصري ومسجد الفكي محمد، وبناءً على الخريطة التاريخية فإن هذا المسجد كان واقفاً حتى عام 1940.⁽¹³⁾

والواقع أنّه قد تم تدمير كل مباني مدينة بربر القديمة في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي حيث تم توزيعها كأراض زراعية بواسطة المفتش الحكومي الإداري في ذلك الوقت.

8. موقع رقم (8) E8.4/K.36.NE بيت سرّ التجار (كبير التجار) صورة جوية رقم 131.14084.AD - مصلحة المساحة السودانية. خريطة رقم K.36.NE خط طول 33 59 30 شرق، خط عرض 17 59 30 شمال.

بني منزل سرّ التجار خلال الفترة التركية (1821-1885) ويقع شمال المركز، ولم يبق منه غير جزء من جدار وأساسات المبنى وذلك لأن البيت قد تمّ تدميره واستخدامه لأغراض الزراعة. يبلغ سمك الجدار 45 سم وهو مبني من الطوب اللبن، وبلغ أبعاد الطوبة (24 ط 14 ط 8 سم) كان سرّ التجار يعتبر من أهم الشخصيات في المدينة خلال الفترة التركية خصوصاً في بربر وفي مدن أخرى كسواكن وغيرها.⁽¹⁴⁾

9. موقع رقم (9) 9.E.4/K.36.NE - مخزن الأسلحة والذخيرة - صورة جوية رقم 131.14084.AD - مصلحة المساحة السودانية - خريطة رقم K.36.NE ، خط طول 33 59 30 شرق 17 59 30 شمال.

(13) خريطة بربر القديمة (الفيقر) مصلحة الآثار السودانية . مكتب بربر 1940.

John Lewis Burckhardt . Travels in Nubia . London. 1819. p.296. (14)

يقع مخزن الأسلحة والذخيرة في منطقة مرتفعة قرب وادي الدكة في الجزء الشمالي من المدينة الذي يفصل بربر القديمة عن المدينة الحالية. والمبنى قد تم استخدامه خلال الفترة التركية (1821-1885)، وقد لعب دوراً كبيراً في المقاومة خلال الثورة المهدية عندما احتلت جيوش المهدية مدينة بربر.⁽¹⁵⁾

بني مبنى الأسلحة والذخيرة في شكل مستطيل يمتد 3400 سم من الشرق إلى الغرب و4800 سم من الشمال إلى الجنوب، وقد بني من الطوب اللبن في شكل دفاعي بعدها تم طلاؤه بالجص (البياض). تبلغ أبعاد الطوبة الواحدة 32 ط 17 ط 8 سم وارتفاع الجدران 470 سم من فوق سطح الأرض، وهناك برجان أحدهما في الجزء الجنوبي الشرقي والآخر في الركن الشمالي الغربي ومنهما يمكن مراقبة كل المناطق المجاورة. يبلغ ارتفاع البرج 4700 سم وقطره 1010 سم، وسمك الجدار 590 سم وهناك طريق صاعدة تقود إلى كلا البرجين.

10. موقع رقم (10) E.4/K.36.NE منزل حسين باشا خليفة صورة جوية رقم- 131.14084.D.A مصلحة المساحة السودانية. خريطة رقم K.36.NE خط طول 33 59 شرق، خط عرض 3 59 170 شمال.

بني منزل حسين باشا خليفة خلال الفترة التركية (1821-1885) لواحد من أهم الشخصيات خلال تلك الفترة، ولكنه هجر بعد أن تم تدمير المدينة بواسطة جيوش المهدية. أبعاد المنزل تبلغ 1050 ط 760 سم. والمنزل يتكون من أربع غرف بدون سقف، وقد بنيت كل الجدران بالطوب اللبن، ويبلغ ارتفاع الجدار 500 سم وسمكه 30 سم، وصنعت الأبواب والشبابيك من خشب الدوم ورغم إزالتها من مكانها إلا أن بقاياها لا زالت موجودة.

11. موقع رقم (11) E.4/ K. 36.NE الكنيسة - صورة جوية 131.14084.AD مصلحة المساحة السودانية، خريطة رقم K.36.NE خط طول 33 59 شرق، خط عرض 17 59 30 شمال.

الكنيسة مبنية من الطوب الأحمر المحروق وقد بنيت بواسطة البعثة الرومانية الكاثوليكية، كما بنت البعثة ثلاث كنائس أخرى في الخرطوم والأبيض وجبال النوبة.⁽¹⁶⁾ وهذه الكنيسة قد تم ذكرها في عدة مصادر تاريخية⁽¹⁷⁾ أهمها الأب دانيال كمبوني (1881) الذي

(15) شقير، ص 188 - 191

fr.Elia Tonioli "The First Century of the Roman Catholic Mission in Central Africa. (16) 1840.1946" SNR. Vol XXVII.1946. pp.119.122.123.

Richard Hill. Egypt and the Sudan 1820 -1881. London . Oxford University Press. 1966 p.128. (17)

بنى هذه الكنيسة في 1874.⁽¹⁸⁾ والكنيسة بنيت على ضفة النيل حيث تنتشر قطع الطوب المحروق فوق سطح الأرض. أبعاد هذا الطوب (36ط15ط7سم). بالقرب من الكنيسة توجد بئر (ساقية) بنيت بالطوب المحروق في شكل دائري وطلبت بالملاط (جير+رمل).

12. موقع رقم (12) E.4/K-36.NE. مدينة الحجاج، صورة جوية رقم 131-14084.AD - مصلحة المساحة خريطة رقم K.36-NE، خط طول 33 55 شرق خط عرض 17 59 30 شمال.

مدينة الحجاج هو المكان الذي يجتمع فيه الحجاج من كل مناطق السودان ووسط أفريقيا خلال فترة الحج حيث يسافرون منه عن طريق القوافل إلى سواكن، وكانت بربر تعتبر في ذلك الزمان الطريق الوحيدة الآمنة إلى سواكن ومن هناك يعبر الحجاج البحر الأحمر إلى الأراضي المقدسة. ومدينة الحجاج مكان لتجمع الحجاج تقع عند الحافة الشرقية لمدينة بربر عند بداية الطريق إلى الشرق. وقد تم بناؤها خلال فترة الفونج (1504-1821م) وهي مستطيلة الشكل مقسمة إلى غرف صغيرة يبلغ عددها أكثر من ستين غرفة بنيت بالطوب اللبن. ويمكن ملاحظة النشاط العمراني الحديث في أبنيتها.

الخلاصة

نستخلص من الدراسة أن بربر لعبت دوراً مهماً حيث أنها كانت ملتقى للقوافل القادمة من خارج القارة الأفريقية عن طريق ميناء سواكن وموانئ البحر الأحمر الأخرى مثل جدة والقصير وينبع وزبيد والعقبة، وأيضاً المواني الهندية. كما كانت هي ملتقى لقوافل حجاج السودان وحجاج غرب وأواسط أفريقيا إلى الأراضي المقدسة في الحجاز. ولا زالت مدينة الحجاج التي توجد في الجزء الشرقي للمدينة شاهداً مادياً على ذلك. وتبرز لنا هندستها المعمارية ووظيفتها الدينية والحضارية كملتقى لثقافات وأعراق وألسن مختلفة جمعتها العقيدة والإيمان.

وتعدّ مباني مدينة بربر تراثاً ثقافياً شاهداً على الدور الحضاري الذي لعبته مدن القوافل العربية من خلال قوافل التجارة والحجاج والمسافرين. وكان الدور الوظيفي لعمارة المدينة (Function Architectural) هو المكرّس لهذا الدور الحضاري مما أتاح للقيم الثقافية أن تؤدي دورها بكفاءة نلاحظها من خلال دراسة عمارة المدينة. فنجد مسجد وخلوة محمد المصري ذي الأصول الحجازية والقادم من مصر تؤدي دوراً ثقافياً في تعليم

(18) Giovanni Vantini . Christianity in the Sudan . Rome .1981.p.243.

السكان أصول الدين الإسلامي. كما يظهر التسامح الديني في مجتمع بربر من خلال العمارة وذلك بالسماح بإقامة كنيسة ترعى شؤون رعيّتها من المسيحيين. أما مسجد الفكي محمد فقد تم تنفيذه بمشاركة النساء في بنائه وإقامة مصلى لهنّ فيه. كما أن هناك مسجد السيد محمود، وأصحاب هذه المساجد من العناصر ذات الأصول المحلية التي أسهمت مع غيرها في هذا التمازج الحضاري.

ويلاحظ أن عامل الزمن الذي صمدت أمامه هذه المدينة طويلاً بعمارتها المتوائمة مع بيئتها قد يهزمها في النهاية ويبدأ بناؤها بالتآكل والانحيار مما يتطلب الترميم والصيانة لمبانيها حتى نحافظ على مدينة تمثل لنا الدليل المادي لما أنتجته الحضارة العربية الإسلامية الزاهرة.

المراجع العربية :

1. بابكر بدري. تاريخ حياتي. الجزء الأول. مطبعة مصر بالسودان، الخرطوم، 1959 .
2. طارق أحمد عثمان، "الإسلام ودوره في العلاقات السودانية المصرية" مجلة دراسات أفريقية. العدد الثامن والعشرون جامعة أفريقيا العالمية. الخرطوم، ديسمبر 2002.
3. محمد صالح ضرار. تاريخ سواكن والبحر الأحمر، الدار السودانية 1981.
4. محمد النور بن ضيف الله. كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان. تحقيق يوسف فضل حسن. دار الطباعة جامعة الخرطوم. 1971 .
5. محمد الأمين الغبشاوي، تاريخ بربر. مكتب النشر الخرطوم 1953.
6. نعم شقير، جغرافية وتاريخ السودان. الطبعة الثانية بيروت 1977.

المراجع الأجنبية :

- 1-Fr. Elia Toniolo. "The First Century of the Roman Catholic Mission in Central Africa 1840- 1949 " SNR. XVII. 1946.
- 2- Giovanni Vantini, Christianity in the Sudan. Rome. 1981.
- 3- Jean-Pierre Green Law. The Coral Buildings of Suakin. Oriel Prees, Leeds, 1976.
- 4- John Lewis Burkhart. Travels in Nubia. London, 1819.
- 5- Julie Anderson and Salah Mohamed Ahmed. Archaeological Reconnaissance in the Beber: A Bidiya Region, 1997. A post Meriotic Double Shaft Tomb In El - Fereikha . Archéologie du Nil Moyen, vol ,9 2002.
- 6- Julie Anderson and Salah el Dain Mohamed Ahmed, Archaeological Reconnaissance in the Beber. A Bidiya Region 1997. Forthcoming Kush. vol, XVIII.
- 7- Richard Hill. Egypt and the Sudan 1820-1880. London. Oxford University Press, 1966.
- 8- Salah El Din Mohamed Ahmed et Julie Anderson, Prospections archéologiques et feuilles de sauvetage dans le voisinage du site Dangeil (1997 et 1999) Sociétés Urbaines en Egypte et au Soudan. Université Charles De Gaulle - Lille III (Cripel , 21.2002).
- 9- P.M. Holt. The Mahdist State in the Sudan 1881-1898. 2nd ed. London. Oxford University Press, 1977.